الهوية العربية
في عالم العولمة

أ.م.د سلام احمد خلف
جامعة بغداد– كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المقدمة :

أحد أوجه أزمة الثقافة العربية يتجلى في الوقت الراهن، في الفهم المشوه للهويه، وفي الصراع حول مفاهيم مناقضه لها. المسألة قديمة في بلداننا، لكن الجديد فيها أنها تحولت الى جزء من أزمه المجتمع، وأزمه التطور، وأزمه الثقافة. فاذا كان الخلاف حول العلاقة بين التراث والحداثة، بأسمائها المختلفة، قد عبر، في فترات سابقه، بما في ذلك فترات النهوض، عن اشكاليات الانتقال من التخلف الى التقدم، فأنه يعبر الان، في ظل تفاقم الأزمة العامة عن تراجع في الوعي وعن تراجع في تحديد حاجات التطور الموضوعية لبلداننا، وتحديد المهمات المرتبطة بها . المشكلة حاليا أعمق بكثير من أي وقت مضى، فانهيار المشاريع التي حملت شعارات التحرر والتقدم والعدالة الاجتماعية، باسم الاشتراكية ، أو بأسماء أخرى، قد أعطى للمشكلة أبعادا جديدة. وثمة في الصراع الحالي حول الهوية، في علاقتها بالبحث عن حل للازمة القائمة، نهجان خطران، يكمل الواحد منهما الاخر كما يشير الى ذلك كريم مروه – الاول، يرى الحل في التماهي مع كل ما يأتينا من جديد من العالم . ويعتبر التمسك بالتراث عائقا أمام التقدم. فالتقدم، بالنسبة لهذا الفريق، هو عملية مطلقة، وفي الاطلاق ، هنا، تغييب لوظيفة التقدم . إذ لا تقدم إلا في الزمان والمكان، وفي الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والانساني، أي في الخصوصيات القومية، التي فيها تتحدد الهوية. وبهذا الربط بين المكان والزمان والانسان، وبين التقدم، يأخذ التقدم موقعه الصحيح. الثاني، يرى في العودة الى الماضي. أي الى ما يعتبره أنه الاصول ، الحل لمشكلاتنا. ويرى المصدر الاساسي للخلل، المتمثل في الازمة القائمة ، هو الابتعاد عن التراث ،بهذا المعنى، أي الابتعاد عما يجري تصويره على أنه أساس الهوية الثقافية والحضارية، في شكلها التاريخي المؤدلج.

ويرى هذا الفريق في الخارج عدوا، لمجرد كونه الاخر المختلف ، فيرفض كل ما يأتي منه، حتى ولو كان فيه ما يساعد على تقدمنا. ويتعامل معه ، حتى ولو كان علوما ومعارف انسانية عامة، كسلعة استهلاكية مفروضة علينا. ويبرز، في صفوف ايديولوجيي الرأسمال المعلوم المتوحش، من ينظر لحتمية هذا النوع من الصراع بين هذين الموقفين الخاطئين، في بلداننا، وفي البلدان التي نلتقي معها في الانتماء الى العالم المتخلف ،من نوع صراع

الحضارات، ومن نوع حروب الثقافات ، علما بأن صراع الحضارات هو مفهوم مصطنع ،لا تبرره كل عناصر الاختلاف والتمايز القائمة بين الشعوب. أما حروب الثقافات فهي موضوعة مضللة أطلقها مؤدلج الرأسمال المعولم هنتنغتون . والواقع هو ثمة ثقافات تنتج، اليوم، وتعمم، عن وعي، من أجل أن تكون مصدرا لحروب مصطنعة ، وظاهرة التعصب القومي والديني في الظرف الراهن ، لا يمكن اعتبارها ، تعبير عن صحوة قوميه، أو صحوة دينية، وهذا الراي لا يقلل من أهمية المسالة القومية ، ولا من أهمية المسالة الدينية. ولكنه يرمي الى اعادة الامور الى نصابها، منعا للتشويه، والتزوير **(كريم ، ١٩٩٧ ، ص ١١)** ..

أهميه البحث:

تكمن أهمية البحث بأن مفهوم الهوية بات يحتل اليوم مساحة واسعة من التفكير والخطاب، وبخاصة منذ أن اثارت العولمة وبدايات ما بعد الحداثة تساؤلات عديدة في مقدمتها اشكالية الثقافة والهوية على نطاق محلي وعالمي. وقد أخذ الحديث عنها يقترن بصورة متلازمة مع طروحات التعددية والديمقراطية وصراع الحضارات ، إذ أصبح الارتياب من العولمة هاجسا مركبا من اندماج عالمي لا يراعي المساوة بين البشر ويعمل على احتواء الاخر، وفي ذات الوقت يبحث على اساءة فهم معنى الاختلاف بين الثقافات، الذي يؤدي الى تفكيك بنية العلاقات الاجتماعية وامكانية تزايد حدة الصراعات الحضارية.

هدف البحث:

يتركز هدف البحث في التعريف بالمشكلة ودراسة الظروف والعوامل التي ساعدت في ظهورها والبحث عن مخرج جديد يمكننا وضع حلو ل ناجحة لها.

منهجية البحث:

كون موضوع الهوية العربية موضوع شائك وقديم وحديث أيضا ، لذا يستند الباحث بشكل رئيسي على المنهج العلمي الجدلي .

المطلب الاول – مفهوم الهوية والخلفية التاريخية لتشكلها .

المبحث الأول : مفهوم الهوية العربية

الهوية هي السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات ، لكن هذه السمة ليست ثابتة أو جاهزة أو نهائية، كما يفهمها أو يعرفها البعض أحيانا ، ولذلك لا يمكننا صياغة تعريف اجرائي لها ولا توصيفها وتحديد خصائص ذاتية لها لأنها مشروع ثقافي مفتوح على المستقبل . ولكنه مشروع معقد ومتشابك ومتغير من العناصر المرجعية المنتقاة المادية والاجتماعية والذاتية المتداخلة والمتفاعلة مع التاريخ والتراث والواقع الاجتماعي .

والهوية ليست أحادية البنية وانما تتشكل من عناصر متعددة ، في مقدمتها الاثني والديني واللغوي والاخلاقي والمصلحي واضافة الى الخبر الذاتية والعلمية والوجدانية . والهوية ليست

مجموع هذه العناصر ، بقدر ماهي محصلة مركبة من عناصر تشكلت عبر الزمن وتم تلقيحها بالخبر والتجارب والتحديات وردود الافعال الفردية والجماعية عليها ، في اطار الشروط الذاتية والموضوعية السائدة والطارئة عليها . وقد عرف الجرجاني الهوية بأنها الامر المتعقل من حيث امتيازه عن الاغيار والهوية عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود . وعند الفارابي ((**هوية الشيء.. عينته وتشخيصه وخصوصيته ووجوده المتفرد له الذي لا يقع فيه اشراك**)) . وفي الغرب كان غروديالك أول من استعمل مصطلح الهوية في التحليل النفسي ليدل به على أمر غير شخصي في الطبيعة الانسانية .

كما أن الهوية كما جاءت في المعجم الفلسفي لمراد وهبة ((عبارة عن التشخص وقد تطلق على الوجود الخارجي وقد تطلق على الماهية مع التشخيص، وهي الحقيقة الجزئية، وقد تطلق على الذات الالهية فهوية الحق هي عينه)). ويرى نديم البيطار في دراسته عن ((حدود الهوية القومية)) بأن ((هوية الام هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها وهو يعني لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ ، فالأمة وحدها تملك الهوية سواء كانت مجتمع أو فرد.

والهوية مثل أرض الوطن بالنسبة للشعب أو الامة، هي ملك مشاع للمجتمع ولكن لا يملك أحد الحق في التفريط بجزء منها ولا يصح التنازل عنها. ويميز علي الدين هلال المستويات الثلاثة للهوية حيث يقول– ينبغي التمييز بين ثلاثة مستويات مختلفة عند تحليل موضوع الهوية، فهناك الهوية على مستوى الفردي، أي شعور الشخص بالانتماء الى جماعة أو اطار انساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات. والهوية بهذا المعنى حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية. وهناك، ثانيا التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية في شكل تنظيمات واحزاب وهيئات شعبيه ذات طابع تطوعي واختياري. وهناك ثالثا، حال تبلور وتجسد هذه الهوية في مؤسسات وابنيه واشكالية قانونية على يد الحكومات والانظمة. أما الاستاذ محمد عابد الجابري فيرى في الهوية (هوية العربي) بأنها رد فعل ضد الاخر ونزوع حالم لتأكيد (الآنا) العربي بصورة أقوى وارحب. فهوية العربي ليس وجودا جامدا ولا هو ماهية ثابتة جاهزة انه هوية تتشكل وتصير. اذ يؤكد الاستاذ عبد العزيز الدوري بأن الهوية العربية تكونت مقترنة بتكوين الامة العربية في التاريخ، وهو تكوين استند الى عوامل عدة في مقدمتها اللغة والتقانة في اطار الجغرافية التاريخية (**ناظم ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٨٤**) .

والاصل في الهوية يرتبط بفكرة المواطنة في الدولة من ناحية الجنسية كظاهرة وكمبدأ قانوني كما ترتبط بالأبعاد الثقافية للشخص والمجتمع مثلما تتصل بالانتماء السياسي للدولة .

وعموما تتغذى الهوية من مصدرين هما ..

أولا : التراث ، وهو المصدر الثابت أو الجوهر الذي يشكل الذهنية التي تقولب الشخصية النموذجية التي تنبثق عنها الهوية .

ثانيا : المجتمع الذي يشكل المصدر الثاني الطارئ والمتغير من الهوية ، الذي يؤثر تأثيرا كبيرا ، فمن الممكن انه يعيق ما هو ثابت أو يعطله مؤقتا ، لان الثابت غالبا ما يعيد انتاج نفسه من جديد ، ولو بصفة أخرى يقتضيها هو في اللحظة المناسبة ووفق صيرورة المجتمع وشروط تغيره الذاتية والموضوعية . ومن أهم المتغيرات الطارئة هي السلطة والمصلحة والكوارث والحروب والقوى الخارجية وغيرها . ويشير أحمد زكي بدوي ، بأن الهوية هي التي تميز الفرد نفسه عن غيره أي تحديد حالته الشخصية . ومن السمات التي تميز الافراد عن بعضهم البعض هو الاسم والجنسية والسن والحالة العائلية والمهنة (**سويم ، ٢٠١٠ ، ص١١٣-١١٤**) .

أما كارميل كاميليري فهو يعرف الهوية بأنها (صيرورة التطور المستمرة لبناء الذات النفسية والمحافظة عليها، والتي تترجم بالشعور بالانا ، وبطريقتين:

أولا: كوحدة منسجمة ومتغيرة والتي هي في أساس اليات وجود الهوية.

ثانيا : كوحدة منشغلة بالبيئة تبني ضد كل ما يصدر منا ومن حولنا، مقاومة وتحلل وايضا كوساطة باستعمال ما يستفيد منه هذا الكائن. هاتين الطريقتين تسمح لنا ببناء علاقة مطابقة في كل لحظة مع ما يصدر منا ومن حولنا، وهي في اساس وظيفة عمليات الهوية في التبني أوفي دورها الفعال أوفي برغماتية سلوكها . عبارة ثانية تعبر الهوية عن وجود الذات التي تتشكل من خلال التفاعل المستمر لمشاعر الفرد مع محيطه ومع نفسه من أجل التعبير عن هذا الوجود، مشاعر تعكس صيرورة العوامل المتدخلة في تكوينها منذ ولادتها، وكما يقول ادمون مارك ليبيانسكي فان الخطاب العائلي يساهم في توجيه تكون الهوية، انه يحدد موقع الطفل داخل العائلة وبنفس الوقت يخطط له مستقبله المنتظر من خلال اقتراح صورة لهذا المستقبل. وحسب راي الان تورين. يمكن التعرف على الهوية من خلال مواقف الفرد الرافضة للتحديد الاجتماعي للأدوار التي يجب أن يلعبها ، ومن خلال مطالبته بالحياة والحرية والابداع.

أي أن الهوية تظهر من خلال التحدي في مواجهة تفرض على المشاعر من الخارج أومن داخل النفس باتخاذ موقف ما أو القيام بعمل معين . فدفاع الفرد عن وجوده ضد كل تدخل أو هجوم يهدف الى اضعافه، أو تحديه لإشباع رغبة ما والتسامي بها، مثل هذه المواقف بحد ذاتها تعكس وجود هوية الفرد. اذن فصيرورة هذه المشاعر متوقفة على قدرتها في التصدي لهذه المواجهة بشكل ايجابي أو سلبي. لذلك فغياب المواجهة تعني موت المشاعر وانتهاء الصيرورة والتي مع انتهائها تنتهي الهوية من الوجود. ويعني ذلك أن الهوية هي تعبير عن هجلية تناقضات النفس البشرية التي ترتكز على ما يدور من حولها وعلى ما يدب في دواخلها من مشاعر والتوليفة التي تبدعها للتكيف مع الخارج ومع الداخل. ولا تتم هذه الهجلية بشكل الي بل بشكل واعي تترجمها مواقفها في الحياة. لذلك فإنها تأخذ لها الصفة الفردية عندما تتعلق القضية بخصوصية مواقفها اتجاه تعاملها مع ما يدور في خلدها وتترجم هذه الهوية الى الواقع بالكيفية

التي يرى فيها الفرد نفسه من خلال المعنى الذي يعطيه لعمله والذي يمنحه خصوصية فرديته مقارنة بالآخر. ولكون العمل هو الاخر في تغيير مستمر فان ما يطمح الفرد الى تحقيقه يترجم أناه المثالية، وتأخذ الهوية صفتها الجماعية عندما تثار مشكلة المساس بالعوامل الجماعية لمحيطها، بمعنى مجتمعها، وهي تلك التي ساهمت في تكوينها والتي تشترك معها في قيمها ومعاييرها والتي تعطي ايضا لعملها معنى أخر في اعطاءها معنى متميز لقيمها المشتركة، أي لأناها المثالية الجماعية من خلال ما يطلق عليه بالانتماء الى المجموعة **(إبراهيم ، ٢٠٠٦، ص٩٥-٩٦)** .

الهوية الجماعية:

على أثر التغييرات الجذرية التي حدثت في الشرق الاوروبي، وبالتحديد في الاتحاد السوفيتي السابق وتفكك جمهورياته في أسيا الوسطى والقوقاز، قد سلط الضوء على مفاهيم، ومصطلحات سياسية واجتماعية كانت قائمة، الا أنها كانت غائبة عن الدراسات السياسية والاجتماعية، ومن بينها مصطلح الهوية الجماعية. اذ يمكن القول بأن هوية مجموعة بشرية ، أو شعب كامل ما ، تمثل ذلك الانتماء الجماعي الموحد لأفراد وفئات أي منهما . فإعلان هذا الفرد أو ذاك بأنه جزائري أو أنها فرنسية، يعني بأن هذا الشخص ينتمي مع بقية الجزائريين في صفات واشياء تكون الهوية الجزائرية، وكذلك تكون الهوية الفرنسية أو الانكليزية. وأن الدراسات الحديثة في العلوم الاجتماعية رأت أن العرق، الثقافة ، الدين الارض والدولة هي العوامل الرئيسية التي تحدد هوية الشعوب. فمن حيث لون البشرة تقسم الاجناس البشرية الى خمسة أجناس كبرى. الابيض، الاصفر، الاسمر، الاحمر، والجنس الاسود. وعلى المستوى الجماعي فلون البشرة يمثل أحد ملامح الهوية الجماعية لشعب من الشعوب أو المجموعة من المجموعات البشرية ، كما في لون البشرة الاسود في المجتمع الامريكي بشكل خاص. وكل العوامل أو العناصر الاساسية في تشكيل الهوية الجماعية لا يمكنها أن تتبلور الا في اطار الدولة **(ناظم ، ٢٠٠٤ ، ص٣٨)** .

المبحث الثاني : الخلفية التاريخية لنشوء وتشكل الهوية العربية

يمكن التحدث عن شبه اجماع لدى المؤرخين والباحثين التاريخيين على أن التاريخ العربي لا يبدأ بالإسلام أولا، وعلى أن العصر الجاهلي ،أي القرنين السابقين على الاسلام، لا يمثل بدايته ثانيا ،وعلى أن هذا العصر ليس جاهليا بقدر ما هو مرحلة تاريخية لها خصوصياتها وقانونياتها واشكالاتها، ثالثا. وقد ظلت مرحلة ما قبل الاسلام، بسبب ذلك وغيره ،حقلا يسوده كثير من الغموض والاضطراب ، لذلك كان المرء يخرج خالي الوفاض ،الا القليل، على صعيد البحث العلمي التاريخي فيه . انطلاقا من هذه الرؤية يتحدث معظم الباحثين عن الهوية العربية بعد ظهور الاسلام **(الطيب ، ٢٠٠٤ ، ص١١٥)** . يذكر اسماعيل نوري (إن أول ما يمكن

الوقوف عليه، لاستجلاء ملامح الصورة الفكرية العربية الاسلامية فكروية الدين ، التي من خلالها تشكلت الابعاد العامة لسمات الحضارة. فكان التوحيد محل الشرك وتعدد الالهة، نقطة الشروع التي أسهمت بشكل بالغ في تعميق وحدة الهوية، والتي انعكست على مفاصل الحياة بشكل واع، عبرت من خلاله عن نضج عميق لنقطة الشروع (**اسماعيل ، ٢٠٠٠، ص٨-٩**).

لقد أحل الاسلام فكرة التوحيد الشاملة العامة، وشمل بما هو ديني وحدانية الله، وبما هو سياسي الولاء للامة بدل الولاء للقبيلة ، وبما هو اجتماعي العدل بدل العرف . وأفرز حالة من التزاوج بين مفهومين، حمل كل منهما أحادية على مدى زماني طويل. بل وحتى عصرنا الحالي مازالا منفصلين هما القومية والاممية. الامة العربية والاسلامية كانت خلال القرون الخمسة الهجرية الاولى، قد حققت ازدهارا في كافة مجالات المعرفة النظرية والتطبيقية، وبنت أخر حضارة انسانية على أرض إمبراطوريتيها الشاسعة الاطراف، قبل أن يحقق الغرب ثورته الصناعية الحديثة حيث توفرت للامة العربية مؤيدات وشروط متعددة ، فتواصلت مسيرة البذل والعطاء والتطور والتقدم. إلا أن جذوة الحضارة العربية- الاسلامية قد خمدت، وانطفأت أنوارها ، بسبب تفكك البنى الداخلية، وتخلع الانساق، وتقطع الاوصال ومصادرة العقل، فأصبحت الحضارة العربية الاسلامية حضارة طرفية ملحقة، بعد أن كانت مركزا ومحورا، واستطالة واهية للآخرين بعد أن كانت المصدر والمنبع. عندما حقق الغرب تقدمه وبنى حضارته واقتحم الوطن العربي ، أدرك مفكرو ذلك العصر، ولمسوا ماديا وعيانيا ما وصل اليه مستوى التطور والتقدم في الغرب بفضل الثورة الصناعية التي سهلت ومهدت لها التحقق ولإنجاز ثورة فلسفية-فكرية- ثقافيه ، فاستبدلت دين الكنيسة بدين جديد اسمه العقل وثقافتها اللاهوتية المغلقة، بثقافة علمانية دنيوية منفتحة وذات افاق كونية. من هنا فقد راود النخبة العربية سؤال محوري واحد. هو لماذا تقدم الغرب هذا التقدم الهائل المبهر، ولماذا تخلفنا نحن العرب هذا التخلف المزري؟ وبالمقابل، ماهي الاسس أو ما هو السر الذي يكمن خلف تقدمهم؟ لقد تعددت الاجوبة عن هذا السؤال. وبدون الحاجة الى الدخول في تفاصيل السجالات والمناقشات والمواقف التي باتت معروفه والتي دارت بين التيارات الفكرية والسياسية ، يمكن العثور على قاسم مشترك واحد هو مقولة التحديث – الحداثة- أوالتنوير. والحداثة نبتة أوروبية نمت وكبرت وتطورت وأعطت ثمارها في سياق الثورة التي قادتها الطبقة البرجوازية الثائرة على الطبقة الاقطاعية وما تحمله هذه الطبقة من فلسفة وافكار وثقافة ونظام حكم في الغرب ، حيث فجرت هذه البورجوازية قيما انسانية تقدمية وتحررية ، كالإنسانية والعقلانية والديمقراطية والعلمانية، مهدت الطريق لكل التطور اللاحق للثورة الصناعية، ابتداء من ثورة البخار الى ثورة الكومبيوتر أو ما يسمى بحضارة (الموجة الثالثة) التي نراها اليوم على حد تعبير الفان طوفلر (**شاكر ، ٢٠٠١ ، ص٢٥-٢٧**) . واذا كانت العلمنة في تاريخها الاوربي والغربي هي واقع تاريخي ونظري واقتصادي واجتماعي وسياسي ، فهي في

سياقها العربي الحديث اشكالية نظرية وسياسية لم تجد من التحولات التاريخية ما يكفي لتحويلها الى واقع ولرفعها من مستوى الطلب والطموح الى حيز الصيرورة والحتمية.

فقد اندفع الشاميون والمصريون في حماسة لاسترجاع بعض ما كان لهم من مجد وحضارة منسيين ، وسرعان ما حاكاهم سائر العرب فهذبوا لغتهم واثروها، واجتهدوا في اعادة خلق أدب وفن دون أن يتحرروا كليا من عبء الماضي، فاستطاعوا بذلك أن يؤسسوا مراحل متميزة في تاريخهم الحديث. أنها مرحلة تجدد ومرحلة انبعاث، وكان من نتائجها تقوية الوعي بوجود تراث في الثقافة العربية مع أواخر القرن التاسع عشر ، حيث بدأ العرب في اكتشاف تراثهم الماجد في اللحظة نفسها التي اكتشفوا فيها أنفسهم متأخرين في مرأة الغرب المتقدم.

وقد ظهرت بوادر نهضة... شبه تامة. عند المفكرين التنويريين العرب، ابتداء من الطهطاوي حتى محمد عبده ، والكواكبي، وشبلي الشميل، وفرح انطون، واديب اسحاق وغيرهم، ممن تزخر بأسمائهم وآرائهم الكتابات العربية الكثيرة في التنوير العربي . وهذا يعني ان النهضة ليست مجرد عملية تغيير ثقافي واجتماعي جزئي وانما هي عملية تغير شامل تنبعث من الرغبة الواعية في الافادة من الثقافة الاكثر تقدما ورقيا لتعديل الاوضاع القائمة المرفوضة على الاقل من النخبة المثقفة ، وارادة الخروج من حالة التخلف والركود التي سيطرت على الفكر العربي ، واللحاق بالعلم الغربي الذي كان يعتبر في ذلك الحين وتحت تأثير تلك الظروف النموذج المثالي الذي ينبغي الاقتداء به. وفي حدود معينة، تؤخذ في الاعتبار الثقافة التقليدية ، وامكانية تعديلها دون أن يؤدي ذلك الى استبدال ثقافة جديدة وغريبة، هي الثقافة الغربية بالثقافة العربية (الاصلية والاصيلة) أو حتى تغيير هذه الثقافة الى حد الذي تفقد معه ملامحها ومقوماتها المتميزة.

وجوهر الخلاف بين الحضارتين الغربية والعربية الاسلامية أن الاولى قامت على القطيعة مع الماضي المظلم وابعدت الدين عن مجالها، والتزمت بالحداثة جملة وتفصيلا، أما الثانية فهي حضارة تأسست على أساس تجاوز المراحل المظلمة، لاسترداد واحياء حضارة مغمورة، كان لها المجد وعظمة أوائل الاسلام . وكان أغلب رواد النهضة الحديثة يستندون بشكل أو بأخر الى الاساس الديني، بعكس الرواد الغربيين، فالتجديد الفكري الذي ارتبط بالحضارة في العالم العربي . كان يهدف الى تجديد الحياة، واعتبر الدين أحد المحاور الاساسية نظرا للدور الذي يقوم به في المجتمع العربي والاسلامي . ولم يكن القصد من الآراء التي تدعو الى التجديد الديني ان تهدف الى نقد الدين في ذاته أو الدعوة الى الالحاد، بقدر ما كان القصد هو مناقشة وتنقية الافكار السائدة في المجتمع، والتي لم تكن تتفق في كثير من الاحيان مع جوهر الدين، وكان الهدف هو تخليص العقل من الجمود في نظرته الى الدين، وتحكيم العقل والمنطق في مناقشة امور الحياة. وهذا الخلاف الجوهري بين الحضارتين ظل مصدر تفاقم الازمة والصدام بين العرب والمسلمين في مقابل الغرب (**حسن ، ٢٠٠٣ ، ص٢٢٨**) .

لقد بدت مشكلة تجديد الهوية الوطنية والقومية من القضايا الرئيسية التي عالجها المفكرون العرب وكان من الطبيعي أن تقودهم افكارهم العلمانية الى التمييز والفصل بين ما هو عربي وما هو اسلامي ، وبالتالي أوجدوا لأول مرة في التاريخ العربي تعريفا للعروبة منفصلا عن الاسلام واعتبروا الاسلام نفسه أحد عوامل التطور الحضاري العربي ، ومن خلال هذا التمييز نشأ المفهوم العلماني للقومية العربية ، كما نشأ مفهوم جديد للوطن قائم على الروابط الاجتماعية بدلا من الروابط الدينية ..... ويعد بطرس البستاني أول من قال بعروبة الناطقين بالضاد ووحدتهم **(حسن ، ٢٠٠٣ ، ص٣٤٥-٣٦٧)** .

أن حركة النهضة العربية الاولى حققت منجزات مادية مهمة، بناء جيش قوي ، صناعة عسكرية، زراعة منتجة ومتقدمة ، الا انها منجزات فوقية افتقرت الى النفس الديمقراطي ، وقد وصف محمد عبده (محمد علي الكبير) قائلاً : (بأنه كان زارعا ماهرا ، وصانعا مقتدرا ، ومحاربا شجاعا ، لكنه لم يترك رأيا يستتر به ضمير (انا) الا ونفاه عن بدن صاحبه) **(شاكر ، ٢٠٠١ ، ص٣٥)** .

وفي مرحلة لاحقة تمكن النهضويون الاوائل من وضع هدفين أساسيين للتحرر والتقدم يتلخص الاول في التحرر السياسي من الاستعمار . والثاني التحرر الفكري من الجمود والتقليد والرجعية . كما حاولوا ايجاد صيغة تكيف الدين مع واقع العصر . الا أن كل ذلك على أهميته ، لم يشكل انقطاعا ثقافيا ومعرفيا نوعيا وحاسما وعاما عن الماضي جملة، ولم يتجاوزوا البنى الموروثة التقليدية بصورة جذرية في ميادين الفلسفة والفكر والتنظيم الاجتماعي ، كما انهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا حقيقة الحداثة ، حيث أن البنى الداخلية للعرب ماتزال ماضوية وهشة ومتداعية ، بينما البنى الحديثة تتسم بالتماسك الداخلي والوعي الذاتي.

لقد اثبتت التجربة التاريخية الاوربية أنه من أهم الخصائص الجوهرية للحداثة انها تمثل سياقا مرحليا يتم فيه الانتقال من نمط للمعرفة الى نمط أخر مختلف جذريا. وهو بمثابة انقطاع عن أساليب التفكير التقليدية غير العلمية وتبن لأساليب جديدة . لقد طرحت التجربة القومية العربية، نفسها بديلا لليبرالية ، لكنها تخلت عن أهم انجازاتها المتمثلة بالديمقراطية كأداة تجديد للسياسة وبالعلمانية كأداة تجديد للثقافة. لقد أثبتت التجربة التاريخية الاوربية أن الحداثة لا تتحقق الا بتوافر عدة شروط :

الاول: ثورة ثقافية عقلانية، علمانية دنيوية، سلاحا نهجا علميا نقديا صارما، يستهدف كل ما هو قديم ومفوت في البنية الثقافية العتيقة، والانساق الفكرية الغيبية.

الثاني: أن سيرورة التحديث تتطلب قوة اجتماعية مستنيرة تستوعب كل المصادر والمؤثرات لتتولد ديناميكية داخلية في المجتمع، تكون طاقة للدفع والفعل ، يحفز على تجاوز اللحظة الراهنة الى فسحة مستقبلية، ترتقي بالمجتمع بشكل عام.

الثالث : يجب أن يكون تطلعنا وطموحنا أن نبتدع منطقا وفلسفة عربية تبصر الواقع الراهن * الحاضر العربي* وتحيط به من كل جوانبه بعمق معرفي وعلمي، يجعلنا متحررين من قيود التبعية والنظر بعيون الاخر، والتفكير بمنطق الغير، في سبيل بناء منظومة فكرية وثقافية وفلسفية تستوعب الحاضر وتكون سلاحا نظريا مطابقا للواقع لمعالجة اشكالاته وتجاوزه نحو أفاق مستقبلية ، تشكل قطيعة نوعية مع كل فكر سلفي ، ومعرفة ممقوتة لن تجلب لنا بالتأكيد الا التقهقر والدمار وانتاج حداثة التأخر.

الرابع: بناء الانسان العربي الحديث ذي الثقافة العلمانية والعقلانية والواقعية الثورية، وتغليب الثقافة العلمية على الثقافية الغيبية والامتثالية والنقلية والاتباعية. فالإنسان الحديث انسان جديد في نظرته للوجود والمجتمع ونمط الحياة، وشكل العلاقات الاجتماعية، ومضمونها التحرري ، المتعلق بالاعتراف بالآخر، وحريته العقيدية، وحريته في ابداء الراي، وحريته في الاختلاف والنقد للراي المخالف **(حليم ، ١٩٩٨ ، ص٣٤-٥٠)** .

المطلب الثاني – الهوية العربية والعوامل المؤثرة فيها

المبحث الاول – عناصر التنوع والتجانس في الهوية العربية : يمكن النظر الى مسألة التجانس والتنوع في الهوية العربية كما تتجلى ، من خلال. (الانتماء العربي ، الثقافة المشتركة ، التواصل والاتصال بين البلدان العربية ، التكامل الاقتصادي ، التوحد السياسي) .

أولا- الانتماء العربي.

يكاد يجمع معظم الباحثين على أن اللغة عنصر مكون أساسي في الهوية العربية وأن الغالبية العظمى من الجماعات التي تغطي الوطن العربي تتكلم اللغة العربية (وهي لغتهم الام) وتشعر بالانتماء الى الجماعة العربية ويعتبر الوطن العربي مجتمعا وأمة. لقد صنف سعد الدين ابراهيم ، الجماعات في الوطن العربي حسب بعدين رئيسيين هما الشعور بالانتماء العربي والتحدث باللغة العربية كلغة أم فتوصل الى أن هناك أربع مجموعات ..

١- الجماعة الرئيسية التي تمثل أكثر من ٨٥ بالمئة من مجموع سكان الوطن العربي وهي التي يتكلم أفرادها اللغة العربية ويشعرون بالانتماء الى الجماعة العربية.

٢- جماعات تتكلم العربية ولكنها لا تشارك العرب حسهم القومي (ومن الامثلة التي ذكرها ، الطائفية المارونية في لبنان).

٣- جماعات ذات انتماء عربي ولكنها لا تتكلم العربية مثلا جماعات في الصومال ، غرب السودان، واقطار شمال افريقيا.

٤- جماعات لا تتكلم العربية ولا تحس بالانتماء العربي وابرزها في رأيه الاكراد في شمال العراق وقبائل جنوب السودان وقبائل البربر في المغرب والجزائر. غير أنه لابد من الاشارة هنا الى أن علاقة العرب باللغة لم تكتمل ، فهنا ك وجود هوة بين اللغة العربية الفصحى

المكتوبة واللغة العامية المحكية **(حليم ، ١٩٩٨ ، ص٥٠-٥٩)** . ومهما كانت علاقة العربي بلغته، لابد من الاعتراف بأن اللغة وحدها وبحد ذاتها، لا تشكل هويته ، ومن التأكيد أن للانتماء العربي أسس أخرى منها- ثقافية وتاريخية وجغرافية واقتصادية، باختصار أن الانتماء هو مزيج غريب من العناصر الموضوعية والذاتية في واقع تاريخي اجتماعي محدد. مقابل هذا الاحساس العام بالانتماء العربي هناك انتماءات اخرى، ترافقه أو تتعارض معه كالانتماءات الدينية والاقليمية والاثنية والقبلية بالإضافة أو كبديل للانتماء القومي العربي . من ناحية أخرى نشأت في الاسلام اتجاهات وظواهر تتعارض مع القومية العربية ومنها ، الشعوبية والدعوات المختلفة لوحدة اسلامية بصرف النظر عن الانتماءات القومية. في العصور الاولى ظهرت الشعوبية التي ذكر ابن ربه في كتابه العقد الفريد أن اتباعها هم أهل التسوية، فمن حجة الشعوبية على العرب قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وأن الناس من طينة واحدة.. واحتجا بقول النبي عليه الصلاة والسلام المؤمنون أخوة... وليس لعربي على أعجمي فضل الا بالتقوى... موافق لقول الله تعالى (أن اكرمكم عند الله اتقاكم) هذه هي الحجج النظرية ، أما الخلاف فهو خلاف قومي ضمن الاسلام كان من ظواهره ((مفاخرة العجم على العرب))، و((من العصبية العربية)) ضد العجم. وفي العصر الحديث ظهرت دعوات اسلامية كبديل او حتى معادية للقومية بما فيها القومية العربية.

أما ما يهمنا بالدرجة الاولى في مجال الحديث عن الولاءات التقليدية هو أن الواقع الاجتماعي في عدد من البلدان العربية وخاصة المشرق العربي أحال الواقع الديني الى واقع طائفي . الانتماء الاقليمي (الوطنية والقومية)- مهما كان رأينا بمدى الانتماء العربي وعمقه واستمراريته وافضليته، فان المدقق في الحياة العربية لابد أن يلحظ وجود ازدواجية قومية وطنية تتمثل بإشكالية التوفيق بين الولاء للمجتمع العربي ككل والولاء للوطن (القطر). يكون المخرج بالنسبة للبعض القول بسيادة الولاء القومي والوحدة العربية، وللبعض الاخر بالموازنة بينهما، وللبعض الاخر بسيادة الولاء الوطني (القطري) ، وقد ينشأ عن كل ذلك اتجاهات تقول أما بالوحدة التامة أو وحدة بعض المناطق العربية (وحدة المغرب- وحدة الهلال الخصيب- وحدة وادي النيل- وحدة الجزيرة العربية.....الخ) أو بالإبقاء على الوضع الراهن كما هو. هذه بعض جوانب تعددية الانتماء القومي وازدواجية الوطنية والقومية. الولاء القبلي- أن الولاءات القبلية- العشائرية- العائلية هي بين اكثر الولاءات التقليدية رسوخا وتأثيرا في مجمل الحياة العربية المعاصرة. وفيما يتعلق بدورها بالنسبة لمسألة التنوع والتجانس في الهوية العربية فأن القبلية قد تتعارض مع الدين كما تتعارض مع القومية. الولاء الاثني- نشير هنا الى ولاءات الاقليات اللغوية والثقافية التي تتعارض مع الولاء العربي في عدد من البلدان العربية كالمغرب والسودان والعراق والخليج.

الثقافة المشتركة (حليم ، ١٩٩٨ ، ص٢٢١-٢٢٣) :

ننظر أيضا الى مسالة التجانس والتنوع في الهوية العربية من خلال مدى وجود ثقافة مشتركة في المجتمع العربي، فنشير بها الى مجمل المعارف والحياة الابداعية في العلم والفلسفة والفن. وهنا نود ان نشير الى وجود ثقافة عربية عامة يمكن وصفها بانها ثقافة مشتركة ومتنوعة في ان معا، وذلك في شتى مجالات الحياة اليومية. تستمد الثقافة العامة هذه من اللغة العربية وآدابها، ومن الدين، والعائلة، وانماط الانتاج المتشابهة، والتحديات ، والنظام العام السائد، ووحدة التجربة التاريخية. وفي سبيل اجراء تحليل أدق لتنوع الثقافة العربية، نشير الى أن الثقافة العامة تشمل في الواقع ثلاثة انواع محددة من الثقافات الخاصة وهي كما يلي:

- الثقافة السائدة وهي ثقافة النظام العام والمؤسسات والطبقات والعائلات الحاكمة، انها الثقافة العامة المشتركة والاكثر انتشارا.
- الثقافة الفرعية وهي ثقافات خاصة ضمن الثقافة العامة وتتمثل في المجتمع العربي بشكل خاص، في البداوة والفلاحية والحضارة وتتنوع بتنوع الطبقات وثقافات الاقليات والجماعات والاقاليم.
- الثقافة المضادة التي تتناقض مع الثقافة السائدة وتدخل في صراع حاد معها، وتتمثل خاصة باتجاهات الرفض المنتشرة في أوساط المثقفين المبدعين والثائرين السياسيين وفي العراق عدة أقليات أهمها الاكراد (تقدر نسبتهم بين ١٥ بالمئة –٢٠ بالمئة) الذين شكلت مسألتهم معضلة للحكومات المتعاقبة .

ثالثا: التواصل والاتصال بين البلدان العربية :

أن الاتصالات بين البلدان العربية هزيلة للغاية، الامر الذي يحد من امكانيات الوحدة وتجاوز المسافات النفسية الاجتماعية بين العرب في اقطارهم المختلفة. فلكل قطر عربي مؤسساته الاعلامية الخاصة، ونظامه التربوي، وتوجهاته، ومنشوراته، وارتباطاته المنفردة مع الخارج. وتمارس الانظمة العربية الرقابة والمصادرة ليس فقط في الداخل، بل بين الاقطار العربية. فأصبح التبادل الثقافي محدودا لدرجة شبه الانقطاع والعزلة.

رابعا: التكامل الاقتصادي :

لم يلق عامل التكامل الاقتصادي الاهتمام الذي يستحقه الا مؤخرا من حيث تاثيره بمسالة الهوية العربية، وأهمل اهمالا ملحوظا من قبل منظري القومية العربية على عكس عوامل اللغة والثقافة والتاريخ. وقد اهتم معظم المنظرون بهذا العامل، أما كعامل تفرقة أو كعامل توحيد دون اهتمام جدي ومنهجي بأثره المزدوج .

خامسا: التوحد السياسي :

فرضت التجزئة السياسية على الوطن العربي بعد انهيار الامبراطورية العثمانية. ومع أن هناك عوامل داخلية أثرت في فرض هذه التجزئة الا أن الامبريالية هي التي شكلت العامل الحاسم والاهم ، وكان الاستبداد العثماني قد هيأ لذلك على الاقل بأضعاف المجتمع وتجريده من مناعته والتسبب بتخلفه وتفككه الاجتماعي **(عبد العظيم ، ٢٠٠٩ ، ص ١٦٧-١٧٤)** .

المبحث الثاني : دور الديمقراطية والاندماج الوطني في الحفاظ على الهوية

أن الاندماج الوطني أو التجانس الاجتماعي ، هو انصهار الجماعات اجتماعيا وثقافيا، بحيث تتوحد الهوية الخاصة والهوية العامة في هوية مشتركة جامعة وسهولة الوصول الى نوع من الاجماع حول القضايا الاساسية المتعلقة بمصير البلاد وعلاقته بالعالم الخارجي. ولأنه يندر أن تجد مجتمعا لا تتوافر فيه التعددية والتنوع القومي والديني والمذهبي والقبلي واللغوي، فأن محاولة اقصاء وعزل هذا التعدد والتنوع ، يسهم في الانقسام والتجزئة والى احداث خلل في نسيج المجتمع ، فطبيعة المنظومة الاجتماعية وأشكال العلاقات القائمة بين عناصرها هي انتاج كيفي لمجمل الخصائص الذاتية والنوعية التي يتميز بها أفراد المجتمع في وضع تأريخي واجتماعي محدد، فمتى كانت خصائص الافراد على درجات قريبة من التماثل كان ذلك داعيا الى تشكيل معايير ضبط وانتظام ترتبط في خصائصها بخصائص الافراد ، فمع وجود التنوع لا بد من تنوع المعايير الضابطة أيضا ، ومع وجود التناقض لابد أن تظهر المعايير المتناقضة . وانسياقا مع هذه الفرضية ،فان طبيعة التناقض ستؤدي الى صراع، ومن هنا ، فأن الانقسامات الاثنية الحادة والعميقة والعنيفة تؤدي الى خلل في التجانس الاجتماعي، ولما كانت الديموقراطية تقبل بوجود المختلف، والسلوك الناتج من هذا القبول في حياة المجتمع وأعضائه، هو النظر الى حرية الغير جماعة أو فرد بوصفها حقا قائما ومضمون الاستمرار ،ولما كان أي مجتمع لا يخلو من تعددية وتنوع ، فلا مكان لتعايش هذه المكونات الا في ظل عقد اجتماعي، والديمقراطية هي صيغة لهذا العقد ، يضمن استمرار وجودها ، وهذا لا يكون الا في ظل الاعتراف المتبادل والواعي بين هذه المكونات عبر وسائل سياسية وقانونية ، أولها.. المواطنة، وثانيها. تنظيم الحريات العامة . فالمواطنة بوصفها انتماء الى الوطن – الدولة لا تثمر الافي جذر الديموقراطية ،كون الديمقراطية تقوم على أساس الاعتراف بالإنسان ، بحقوقه وحرياته بغض النظر عن الانتماءات الاثنية ، وعلى أساس حق المواطن بالتعبير والمشاركة في صنع القرار ، وهي ذاتها مقومات المواطنة الفعالة والصالحة في ظل الانتماء الى الوطن – الدولة بحيث لا يمكن الفصل بين فكرتي المواطنة والديموقراطية، ففكرة المواطنة هي من افرازات الفكر والنظام الديمقراطي، بمعنى أنها ولدت من رحم الثقافة الديموقراطية وتعترف بأن المواطن الانسان هو مصدر السلطات السياسية جميعها ، وبدون الديموقراطية لا تنمو فكرة المواطنة ، غير أن هذا الطرح لا يفهم منه الغاء

الانتماء القومي أو ألديني أو المذهبي، وأنكاره، بل هو الحد من هيمنة قومية أو دين أو مذهب على الآخر، لأن الديموقراطية انفتاح على العوالم البشرية في تواصلها الواقعي مع الاخرين ، فلا معنى لوجود حقوق قانونية وسياسية إلا بتوافر الحد الادنى من ضمانات ممارستها على أرض الواقع، مثل وجود التقارب النسبي في الدخل والثروة والمكانة الاجتماعية وتوفير فرص العمل والتعليم والرعاية الاجتماعية ، وحق الحصول على المعلومات، التي تجعل من الديموقراطية عملية مشاركة ممكنة وفعالة ، وليست مجرد استحواذ واقصاء من فرد أو قلة من الناس ، بأسم الديموقراطية على حساب قيم العدالة والانصاف والمساواة .أما تنظيم الحريات ، فالديموقراطية لا تنشد الحريات المطلقة، بل هي تنظيم لها بشكل يضمن تبادل الاعتراف بحريات البعض مع البعض الاخر، ويجعل حرية كل واحد بناءة لأنها مندمجة ضمن حرية المجموع ، بمعنى أن الحريات في النظام الديموقراطي لا تذهب الى النزعة الفردية ، لأن الحريات في الاصل – طبيعية – فالفرد يتعدى الفردية لتحقيق القيم الانسانية المشتركة ويهدف الى التكامل داخل المجتمع، فالديموقراطية نظام يفسح المجال للإمكانيات كلها أمام كل شخص، وأنها النظام، الذي يخولنا بصفتنا أشخاصا الوسائل الناجعة كي نحيا، في وعينا وسلوكنا والمثل العليا المشتركة، فالديمقراطية لا تلغي حرية الافراد بل تمنحها بعدا اجتماعيا ولا تلغي الصراع والتنافس بين الذوات الفردية، بل تضفي عليها الصفة العقلانية والاخلاقية التي تجعلها موجهة نحو المصلحة العامة. اذن. البعد الديموقراطي هو الذي يجعل الحياة الانسانية ممكنة داخل كل مجتمع مع تواجد الاختلاف فيه، وهو المجال الذي تتحقق فيه وبفضله صيغة جدلية بين وحدة المجتمع وتنوع مكوناته ، وعليه فان غياب التجانس الاجتماعي يقود الى خلق سلسلة معوقات امام تحقيق الديمقراطية .. لان الديموقراطية تذهب الى بناء المؤسسات السياسية ، ولا تعتمد على المؤسسات التقليدية ، فاللجوء الى احلال المؤسسات التقليدية في الدولة الحديثة، يضع أي مجتمع يسعى الى تحول ديموقراطي أمام تهديد خطير، فشعور الأفراد بالولاء الى الانتماءات لا ينقصها أبدا استعمال العنف والتهديد بالقوة .مما يفوت فرصة على المجتمع في بناء تجانس اجتماعي باتجاه الوحدة الوطنية وما يعنيه ذلك من ضياع للهوية .

ثانيا: أن الديموقراطية ليست نظاما سياسيا فحسب ، بل قيم اجتماعية واخلاقية وسلوكية ، تتمثل في التسامح والحوار وقبول المختلف والتعاون والتضامن الاجتماعي والمشاركة السياسية ، فأن روح التضامن والتعاون بين مختلف الجماعات والهيئات أول وسائل العلاج لازمات الانظمة الديمقراطية. وبما أن الافراد محكومون بواقعهم الاجتماعي واسهاماتهم فيه فأن الانقسامات الاجتماعية تعمل ضد التصرف العقلاني وتحرمه من ممارسة حريته الفردية وتقف عقبة في وجه نمو القيم والمثل الديمقراطية، فالقيم التي تسيطر عليها ولاءات الافراد ضمن المؤسسات التقليدية

كلما قويت مصادرها وأصبحت أكثر ارتباطا ببعضها قل احتمال وجود التسامح السياسي، ومن ثم فقدان الروح الديمقراطية اللازمة لقيام النظام الديمقراطي.

ثالثا: أن الولاءات المزدوجة تهدد التجانس الاجتماعي ، واللحمة الوطنية، وقد يكون مرد الولاء المزدوج نتيجة اقصاء طرف أخر دون أخر، مما جعل هذا الجانب أو ذلك يحتمي خلف عناوين جانبية ، الامر الذي يسهم في تفتيت الوحدة الوطنية ، فبدلا من الانشداد الخارجي لهذه الجهة أو تلك ، يفترض أن يقام جسر للعلاقة مع الطرف الخارجي، تصب في مصلحة القضية الوطنية ، ولنا مثال ... في حالة العراق ،في موضوعة الانشداد الخارجي ،اذ يفترض أن يتم أقامة جسرا من العلاقة في التماثل الديني والقومي والمذهبي مع الطرف الخارجي في خدمة وبناء واستقرار أركان الدولة والمجتمع العراقي، بدلا من جلب الصراعات وتغذيتها من الطرف الخارجي، ومن ثم تهديد الوحدة الوطنية .

رابعا: أن للثقافة السياسية دور في تأسيس الاندماج الاجتماعي، فان سعي السلطة السياسية الى تحفيز المشاركة السياسية وتنشيطها في المجتمع يؤدي الى قيام حراك اجتماعي وسياسي ومن أبرز مظاهره الحوار ونقل المدركات والطموحات والتطلعات من الشعب الى السلطة السياسية مدخلات ومخرجات وصولا الى نقطة الرضا والقبول ،ومن ثم بناء الوحدة الوطنية وهي عامل مهم في عملية التحول الديموقراطي . وأتسمت طبيعة المجتمع العربي في العصر الحديث بالازدواجية في القيم والافكار والممارسات، فعلى الرغم من ملامسته قيم المدنية والحضارة بعد أنتشار التعليم وزيادة رقعة مساحة الثقافة واطلاعه وتعامله مع أدوات ووسائل الحضارة في حياته اليومية حتى الوقت الراهن ، فلا زال يحمل من ترسبات البداوة الكثير، بمعنى أن اتصاله بالقيم الحضارية كان ولا زال مكانيا وليس ثقافيا ، ونجد ذلك ماثلا حتى في قسم ليس بالقليل من الاوساط المثقفة ، لان التغيير الاجتماعي على عكس التغيير السياسي والاقتصادي فهو يحتاج الى وقت ليس بالقصير ، كونه يرتبط بقيم وعادات وتقاليد مر عليها مدد طويلة أعتاد عليها فصارت عرفا قد يكون اقرب الى القانون اذن.. ان تقدم القيم التقليدية والبدائية القبلية ،العشيرة يعني غياب القيم المدنية أو ضعفها ، ومن ثم تأثيرها في عدم تبلور مفهوم الوطن والمواطنة أو تهديد عملية ألتحول الديموقراطي، لأن المواطنة في علاقة توأمة مع الديمقراطية ، وهي أساس الفاعلية الاجتماعية التي تفضي الى الابداع والانتاج والمشاركة في بناء التكامل الوطني **(عبد العظيم ، ٢٠٠٩ ، ص ١٧٤-١٧٥)** .

وثمة صلة بين الاقليات القومية والدينية والاندماج الوطني ، فعندما تحرم تلك الاقليات من التمتع بحقوقها وحرياتها، وتغيب هويتها تلجأ الى التمرد ومحاولة الانفصال عن الكل الاجتماعي ونجد ذلك في ظل الهيمنة المركزية للدولة كما حصل في العراق في ظل السلطات الاستبدادية المتعاقبة .

نستنتج مما تقدم أن هناك علاقة جدلية تربط بين الديمقراطية والاندماج الوطني والحفاظ على الهوية ، وأن أزمة الهوية في المجتمع العربي تعود بشكل أساسي لوجود أنظمة تسلطية ذات امتدادات خارجية ، ولذلك فان مستقبل الهوية العربية يتوقف على قيام نظام عربي ديمقراطي مستقل ينقل العالم العربي من حالته الراهنة الى مستوى الوطن العربي، فلايزال العالم العربي يعيش حالة انتقال. أي أن هناك ضرورة لنقل الوضعية العربية الراهنة من مرحلة العالم العربي الى مرحلة الوطن العربي وأعني بذلك أن العالم العربي هو مجموعة البقع أو الاقطار العربية التي ماتزال تعيش حالة من القطرية لا تسمح حسب اراء الكثير من الباحثين بالتحدث عن وطن له كيانه الشخصي ، وهذا يعني أن النقلة من العالم العربي الى الوطن العربي هي نقلة مرتهنة بتحقق عملية توحيد بين هذه الاقطار. والتوحيد هنا هو توحيد يتم عبر مشروع سياسي ثقافي اقتصادي أي أن الوضعية العربية الراهنة هي فعلا وضعية في مرحلة التشكل ولذلك يلاحظ أن جهود الامبريالية والاستعمار من قبلها ، ثم المشروع الصهيوني تتركز في العمل دون تحقيق هذه النقلة من بنية العالم العربي الى بنية الوطن العربي لان بنية الوطن العربي هو بنية نوعية جديدة تتجاوز العالم العربي أي تتجاوز التبعثر القطري، الذي هو في الحقيقة ،السمة الاساسية الغالبة في المرحلة العربية الراهنة **(منصور ، ١٩٩٩ ، ص ١١٧)** .

المبحث الثالث : التنشئة السياسية وتكون الرأي السياسي

تتكون شخصية الفرد في العائلة ثم تأتي المؤسسات الاخرى كالمدرسة والدين والاحزاب وغيرها لتتمم أو تعدل أو تغير ذلك. أن الاتجاه العام والغالب في المجتمع العربي هو استمرارية وتكامل التنشئة فتتمم المؤسسات أكثر مما تعدل أو تناقض بعضها البعض. من خلال هذه الثقافة المتكاملة السائدة ينشئ المجتمع الافراد على شاكلته فيحملون قيمه واخلاقه ومبادئه واهتماماته بدرجات متفاوتة وحسب مواقعهم الطبقية وانتماءاتهم الاجتماعية ومصالحهم ومدى اندماجهم في المؤسسات التقليدية. يظهر جليا أن العائلة قد تفقد بعض طاقتها على تنشئة الافراد حين يمر المجتمع في مراحل انتقالية وفي حالات التعارض بين العائلة والمؤسسات الاخرى (التعارض مع الاحزاب مثلاً) والتفاوت الثقافي بين الاهل والابناء ..... الخ.

وفيما يتعلق بأنماط التنشئة التقليدية في العائلة العربية، فأنها كانت ولاتزال الى حد بعيد، تشدد على العقاب الجسدي والترهيب والترغيب أكثر مما تشدد على الاقناع. من هنا الاعتماد على الضغط الخارجي والتهديد والقمع السلطوي، وعلى الحماية والطاعة والامتثال والخوف من الاخطار وتجاوز الحدود المرسومة. وتنشأ عن كل ذلك نزعة نحو الفردية والانانية والتأكيد الدائم على (الانا) أكثر من التأكيد على (النحن) ونتيجة للمحاولات المستمرة لسحق الذات وتذويبها في الجماعة وفرض الطاعة والتأكيد على العضوية بدلا من الاستقلالية، تتكون عند الفرد حاجة ماسة مضادة للتأكيد على ذاته والاعلان عن وجوده ومنجزاته تجاه قوى تحاول انكارها. إن

الهيمنة السلطوية في العائلة والمؤسسات الاخرى هي بين أهم مصادر النزعة الفردية، اذ تغرب الانسان فيراها مضادة له وفوقه وعلى حسابه بدلا من أن يراها منبثقة عنه ومن أجله. وبما أن العائلة لا تتيح للطفل سوى مجال ضيق لتحقيق استقلاله الذاتي، كما يقول شرابي، ينشأ عند الطفل شعور بالعجز ويميل نحو الاتكالية والهرب من مواجهة التحديات. ويضيف الشرابي أن من أهم نتائج اعتماد الطفل على العائلة أنه ينمو وشعوره بأن مسؤوليته الاساسية هي اتجاه العائلة لا تجاه المجتمع ولا يبقى عنده سوى مجال صغير للشعور بالواجب تجاه المجتمع الاكبر الذي يتصوره الفرد كفكرة مجرده لا ينطبق عليها مفهوم المسؤولية بصورة طبيعية. وبالنسبة الى الفرد المرتبط عائليا بهذا الشكل، لا يمثل المجتمع سوى عالم الصراع والكفاح الذي ينتزع الفرد لنفسه فيه مكانا ليدعم كيانه وكيان العائلة ورفاهها. أن العائلة مرتبطة بالمجتمع في علاقة جدلية ..... فهي تدعم المجتمع وتناهضه في ان واحد. واذا اتفق وجود مطالب اجتماعية وعائلية متناقضة فمن الاسهل على الفرد أن يوفق بين الجهتين بالقيام بواجبه تجاه العائلة والمجتمع. ومهما كان فان العائلة العربية هي الاطار الاهم الذي يتم فيه بناء شخصية الفرد.

هذه التنشئة التي يتلقاها الفرد في العائلة التقليدية تجعله يربط في ظل بعض الظروف ، بين كرامته وكرامة العائلة أكثر مما يربط بين كرامته وكرامة المجتمع. هذه هي بعض مظاهر التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها العائلة في المجتمع العربي في الوقت الحاضر، وهذا ما يفسر جزئيا على الاقل مسألة نوعية استجاباتنا للتحديات الاساسية، بما في ذلك التحديات التي تواجه الوطن وتهدده بمزيد من فقدان السيطرة على مصيره.

التوسط بين الفرد والمجتمع :

تشكل العائلة مؤسسة اجتماعية رئيسية تقوم بدور الوسيط الاهم بين الافراد والمجتمع ذكرنا ان شخصية الفرد وذاته وعقله تتكون ضمن العائلة، وأن ثقافة المجتمع تنتقل الى الفرد من خلال العائلة ، وأن المؤسسات الاجتماعية تتصل ببعضها البعض في اطار المجتمع اتصالا عضويا ، وأن العائلة تهيء الفرد للعمل في المجتمع. هنا نود أن نضيف أن العائلة كوسيط بين الافراد والمجتمع يمكن ان تلعب عدة ادوار مهمة منها أن دور الفرد ونفوذه ومكانته وتوفر المجالات أمامه ومناعته في المجتمع ترتبط بدور العائلة ونفوذها ومكانتها وتوفر المجالات أمامها ومناعتها . تعين العائلة القوية أفرادها على مواجهة صعوبات الحياة في المجتمع وتحميهم من القوى المركزية النافذة وتجد لهم الوظائف والمراكز المهمة. وعلى العكس من ذلك ، يفشل أفراد العائلة الضعيفة في مواجهة التحديات وحماية أنفسهم من سيطرة القوى النافذة ويشغلون وظائف ثانوية على الاغلب. من هنا أن بعض العائلات تسيطر على النظام السياسي ومؤسسات المجتمع، بينما ترزح بعض العائلات الاخرى تحت أثقال الهرم الاجتماعي. ومن هنا أيضا نظام الواسطة المعروف في مختلف البلاد العربية.

تجسد المجتمع في العائلة:

يمكننا ان نعتبر العائلة صورة مصغرة للمجتمع الكبير نفسه اذ نجد ان العلاقات السائدة في المجتمع هي التي تسود في العائلة. وأن الثقافة السائدة في المجتمع تسود ايضا في العائلة، والتغييرات التي تحدث ضمن العائلة لا يمكن فصلها عن التغييرات التي تحدث في المجتمع وخاصة في مراحله الانتقالية بين القديم والجديد. أن العلاقات السائدة في العائلة هي العلاقات عينها السائدة في المجتمع ككل وفي المؤسسات الاقتصادية والسياسية والتربوية . أن علاقة التلميذ بالأستاذ ، والعامل بصاحب العمل، والمواطن بالزعيم السياسي ، والمؤمن بالزعيم الديني، تشبه الى حد بعيد علاقة الولد بالأب، فهي في جميع هذه الحالات علاقات سلطوية أبوية تؤكد على قيم الطاعة والثقة وما يرافق ذلك من خوف وتودد وخضوع. لذلك يستنتج هشام شرابي في دراسته المذكورة أن العائلة في خصائصها الاساسية صورة مصغرة عن المجتمع، فالقيم التي تسودها من سلطة وتسلسل وتبعية وقمع، هي التي تسود العلاقات الاجتماعية بصورة عامه... فأن بنية العائلة القائمة على السلطة الفوقية تقابلها بنية اجتماعية مماثلة..... ومن حيث هي نظام ، تقوم العائلة في أن واحد بتجسيد ودعم النظام الاجتماعي الاكبر . كما أن جميع المؤسسات التي تمثل دور الوسيط، بما في ذلك المؤسسات التربوية والدينية، تقوم هي أيضا بتعزيز القيم والمواقف التي بواسطتها تدرج العائلة أعضاءها في الحياة الاجتماعية، وغنى عن القول أن قيم مؤسسات الطبقات المهيمنة اجتماعيا ... تصبح هي القيم السائدة في المجتمع..... ومن الواضح أن تغيير المجتمع يقتضي تغيير العائلة والعكس صحيح.

أن الامثلة التي يمكن ذكرها في معرض التدليل على العلاقات الوثيقة والمؤثرات المتبادلة بين المؤسسات الاجتماعية لاتحد. المهم هنا أن نشير الى تداخل المؤسسات وتشابكها فلا يمكن فهم الواحدة منها بمعزل عنها جميعا وفي اطار المجتمع ككل الذي لا يمكن فهمه أيضا بمعزل عن المجتمعات الاخرى والاوضاع العالمية. ضمن هذه الشبكات المعقدة تتكون الظواهر الانسانية، وتتبدل بفعل مواقعها وانتماءاتها أكثر مما تتكون وتتبدل بفعل قوانينها الداخلية الخاصة. ولذلك يحصل التغيير الشامل بتغيير البنى الاجتماعية والنظام السائد **(حسن ، ٢٠٠٣ ، ص٢٢٣)** . إن شعور الفرد بالوعي والذي يعكس صيرورة الاخذ والعطاء بينه وبين مجتمعه يتميز عن الشعور السياسي الذي هو نتيجة مباشرة لعملية التنشئة السياسية التي يتلقاها .

فما المقصود بالتنشئة السياسية؟

هناك عدة تعاريف لمفهوم التنشئة السياسية لدى كل من ريتشارد دادسون وكينيث برويت (تلك العمليات التي من خلالها يكون المواطن رايه بخصوص عالمه السياسي) .

فبالنسبة لهما فأن الحياة السياسية هي المسؤولة عن حصول الفرد على معلوماته السياسية فكل ما يعبر عنه من توجهات مختلفة وعقد ورفض أو ولاء باتجاه السياسة انما يعكس تأثير هذه

الحياة عليه. بعبارة ثانية تأثير الثقافة السياسية في التكوين الثقافي السياسي للفرد التي يكتسب معطياتها انطلاقا من علاقته المباشرة منذ مرحلة بواكر طفولته مع رمز سياسي له معنى معين يفرض عليه الالتزام به لتشابه المواقف. مثال على ذلك احترام رئيس الدولة كشخصية انحلالية لشخصية الاب. بعبارة أ خرى احلال سلطة الرئيس محل سلطة الاب وهذا ما يذهب اليه التحليل النفسي الفرويدي حيث يؤكد على أهمية العلاقة بين دور الاب كسلطة وتماثل الطفل معها فبالنسبة لهذه المدرسة فأ ن التنشئة ما هي الا وجه ثاني لعملية التماثل وهي على نوعين حسب رأي كل من جون لابلانش، وجون بيرتراند بونتاليس..

فأولا ... انها تعني تلك العمليات النفسية التي يضم فرد ما الى دواخله وجها ما أو خصوصية ما أو صفة معينة لشخص أخر يتخذها كنموذج وعلى ضوئها يغير كليا أو جزئيا من شخصيته وسلوكه. أو تعني.

ثانيا.... ابعاد الفرد ذاتيته وتبني شيئا من أو صفة مشاعر أو رغبة شخصية ما أن اعطاء الدور الرئيسي للعائلة في عملية التنشئة السياسية يجعلها كأول هيئة مسئولة في هذا المجال ويكفي معرفة تأثيرها ليس فقط بترسيخ الافكار وانما في النمط السلوكي التي تمهد له لشخصية الفرد المستقبلية وخاصة فيما يسمى بظاهرة تحديد الهوية الحزبية للفرد كتعبير عن الهوية السياسية للآباء باتجاه مواضيع سياسية (**سويم** ، ٢٠١٠ ، **ص**١١٧–١١٨). هذا ما وصلت اليه دراسات جامعة ميشغان في سنوات الستينيات والتي تضمنها كتاب انكوس كامبيل وفيليب كونفيرس ورن ميلر ورونالد ستوك – الناخبين الامريكان .. التنشئة السياسية حسب رأي كل من ديفيد استون وجاك دينيس تعتبر ضرورية لوجود النظام السياسي لان استمرار أ ي نظام سياسي متوقف على حصوله على دعم بيئته، ومهما كانت درجة تطوره فلا يمكن تحقيق هذا الانجاز الا عن طريق تطوير المشاعر الايجابية لدى الاطفال ومن خلال تلقينهم بمعطيات ثقافتهم السياسية المسيطرة التي ينقلها الاباء الى أبناءهم وذلك عن طريق التعليم والممارسة السياسية واتخاذ المواقف المعينة بخصوص قضايا سياسية مطروحة على الساحة. ولكن تثار مشكلة في هذا الخصوص وتتعلق في نوعية الثقافة التي يراد غرسها في نفسية الفرد وكيفية تلقينه وليس فقط البحث عن دعم النظام من خلال عملية التنشئة. في الواقع أن المشكلة التي تواجهها عملية التنشئة تكمن في فكرة اعادة خلق نفس الهوية السياسية، بمعنى استخدام التنشئة كوسيلة لإعادة انتاج العلاقات الاجتماعية ذاتها . أن الانتقادات التي يمكن توجيهها الى هذه التحليلات تكمن في أنها ترجع كل علاقة سياسية للفرد الى مرحلة بواكير نفسية هذا الفرد، بمعنى استحالة قيام تماثل مع أي فكرة دون أن يكون للعلاقات العائلية دور بذلك وهذا ما يخالف الواقع لان مفهوم التنشئة لا ينحصر في دور العائلة فقط وانما هناك هيئات ثانية تدخل معها في القيام بدور ايصال الافكار السياسية للأفراد ومن بين هذه الهيئات المدرسة حيث يمكن اعتبار دخول الطفل اليها كولادة ثانية من

زاوية قدرتها على تزويده بكل نماذج التمثيل وقيمها . أن القول بأن المدرسة تلعب دور في عملية التنشئة يعني قدرة هذه المدرسة على تغيير وتعديل ما تم ترسيخه من افكار وسلوكيات من قبل المجتمع العائلي. بمعنى تغيير الهوية التي تم وضع اسسها من قبل العائلة بهدف التوافق مع الظروف وتبني الجديد . بعبارة اخرى ، أن دور المؤسسات التعليمية في شأن التنشئة السياسية يمكن اعتباره كوسيلة تهدف الى ايصال نتاج لما يحويه الزمن من أفكار ومعتقدات وميول ونزعات ولكون أن الزمن في تطور بتطور ظروفه، فأن برامج هذه المؤسسات تتطور هي الاخرى بهدف مطابقتها مع التغيير. لذلك فأن انعكاسات ذلك على التنشئة يعتبر كنتيجة طبيعية وكمحصلة لما يتم من تفاعل داخل وخارج هذه المؤسسات والتي تنعكس بدورها على تغيير في هوية الافراد واتجاهاتهم لكون أن في أساس كل تغيير تكمن الأسس المعرفية. وهنا يظهر الاختلاف بين التنشئة العائلية والتعليمية ففي الاولى تلعب العواطف دورا كبيرا في بناء الشخصية بينما في الحالة الثانية تلعب المعرفة هذا الدور ، كما يظهر أن هناك جانب متداخل أو تكميلي في الادوار بين العائلة والمدرسة وهذا شيء طبيعي لان كلا المؤسستين يمكن اعتبارهما عوامل في تحديد الاتجاهات السياسية الطويلة الامد لدى الفرد أو المواطن بسبب طول مدة خضوع الفرد **(سويم ، ٢٠١٠ ، ص١٢٠-١٢٢)** .

أما فيما يتعلق بدور المؤسسة الحزبية فمن الجدير الاشارة اليه ، أن المؤسسة الحزبية لم تشكل قطيعة مع محتوى العلاقات الابوية السائدة في المجتمع العربي، بل أنها في كثير من الاحيان أعادت انتاج العلاقات المذكورة ذاتها . ويشير الباحث ورد كسوحه الى مستويين من الوعي التي ساهمت في خلقهما العلاقات الحزبية التي عاش في كنفها الشباب العربي وهما ..

المستوى الاول للوعي... وتعبر عنه الفئة من الشباب المولودة في الستينيات وأواسط السبعينيات من القرن الماضي ، والتي وقعت ضحية تبدلات وتحولات القيم والافكار والايديولوجيات والسياسات في بنية المجتمع والسلطة والاحزاب ، في مختلف الدول العربية ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا الوضع حصول أولئك الشباب على وعي مجتمعي مأزوم وفاقد لهويته ومشروعيته التائهتين ما بين انتماء متعب الى مرحلة سابقة والى بقايا وأثار مشروع استنفد كافة قواه ووسائله وخياراته ، وبين انتماء شقي الى مرحلة حالية أكثر تأزما من تلك السابقة ، والى مشروع دولي ومجتمعي مؤجل حتى اشعار أخر في ظل غياب أي أفق سياسي نظري وعملي قادر على اقتراح الحلول والنهوض بأعباء المرحلة ... فقد بدأت العلاقة بين أولئك الشباب والاحزاب المتواجدة على ساحة الفعل السياسي في تلك الفترة تنحو اكثر فأكثر باتجاه شكل من أشكال الاغتراب والتناقض والهوية المأزومة والانتماء الفاقد لهويته ومعناه ، وذلك كتعبير مباشر عن الحلقة المفقودة ما بين وعي القواعد الحزبية الشابة، النوعي والمحمل بشفافية الرؤية وواقعية التحليل العقلاني لواقع الهزيمة وعقم شعارات وحلول المرحلة السابقة، والنتائج

السلبية المتناقضة مع الاهداف المعلنة لعمل الاحزاب العربية كنتيجة منطقية للنظرية والممارسة الحزبية واستنفاد أشكال البناء والتنظيم الحزبي التقليدية . هذا من جهة ، وبين (وعي) القيادات الحزبية التقليدية المشوه والمستنفذ، والمسخر كليا لخدمة الايديولوجيات المغلقة ذات النزوع الشمولي المركزي المغيب والملغي للآخر المختلف فكريا وسياسيا وحزبيا ، والمستمر عبثا في نهجه الاصولي الاستبدادي، هذا رغم السقوط المدوي والانهيار الكامل للتجارب العملية والتطبيقية المماثلة في العالم والمستندة الى ذات الأسس والركائز النظرية والمفهومية التي عليها بناء هذه الاحزاب. والمتعلق بشكل المؤسسة الحزبية السلطوي المغيب للآخر وللطاقات الحزبية الشابة والطامحة للتغيير من جهة أخرى . لقد أدت ازمة العمل السياسي العربي الى ابتعاد قطاعات واسعة من الشباب العربي المؤمن بضرورة النضال الحزبي والسياسي وبأولوية الفعل التغييري عن هذه الاحزاب ، والركون الى الصمت والحياد والقبول بالأمر الواقع والرضوخ لقواه التي استطاعت أن تنتصر في معركتها مع قوى التغيير ، وأن تجذب اليها قطاعا كبيرا من أولئك الشباب الذين أثروا يائسين، الارتماء في أحضان هذه القوى وبناها الما قبل وطنية متمثلة في سلطة الطائفة والعرق والمذهب والقبيلة وبالتالي سلطة النظام الرسمي العربي المستند في وجوده الفوقي وغير المشروع على حالة التوازن القائمة بين تلك البنى القبلية والعشائرية والطائفية المتخلفة، وذلك أملا في أن يجد أولئك الشباب في هذه البنى والعلاقات الحماية التي لم تستطع أن تؤمنها لهم أحزابهم الوطنية والتقدمية وبحثا منهم داخلها عن الهوية الوجودية والكيانية والذاتية. ... المستوى الثاني للوعي ، وتعبر عنه الفئة من الشباب العربي المولودة في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي– وهي الفئة التي تجسد تماما واقع الاغتراب والتغريب الانساني في الدول العربية كافة، حيث يمارس هؤلاء الشباب اليافعون حياتهم بمعزل تام عن كل ما يتعلق بأمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وهم يفعلون ذلك بنوع من اللامبالاة المطلقة والتجاهل التام لتلك المنظومات المجتمعية، أو ربما الجهل بها ، مستعيضين عنها بمنظومات أخرى مختلفة عن السابقة ومتناقضة معها تماما من حيث الأسس والمنطلقات والبنى المفهومية والتوجهات والاهداف ، وتتمثل في التجمهرات الخارجة لثقافة الاستهلاك والترفيه والتكنولوجيا المصاحبة للمد العولمي في مجالات الحياة كافة **(ورد ، العدد ٦٩ ، ص١٧٩–١٨١)**.

في الواقع أن تأثير الافكار الخارجية على تكوين الهوية السياسية ليس بالشيء الجديد، فقبل دخول العالم الى مرحلة عولمته لعبت وسائل الاتصالات الجماهيرية من صحف ومجلات وسينما وراديو وكتب في بلورة الهوية الشخصية للفرد . ولأن السلطة السياسية في مرحلة ما قبل العولمة كانت قادرة على السيطرة على مجالها الفكري من خلال تكثيف أفكار سلطتها والتركيز على دور مؤسساتها في عملية ايصال الافكار الوطنية الى الناشئة ومواطنيها، فقد استطاعت بهذه الاساليب من تقليل خط تفكك الهوية السياسية ، ومن المحافظة على الروح الوطنية. ولكن

في الوقت الحاضر عدم تعلق بهذه الروح وعدم ثقة المواطنين بسلطتهم ، رفع اعلام بلدان أجنبية مثلا- يتم عبر تأثير أدوات العولمة التكنلوجية والتي تذهب الى خلق نوع من التأييد والتعاطف مع الاتجاهات الفكرية لأيديولوجيته **(ورد ، العدد ٦٩ ، ص١٨٢-١٨٦)**.

وهذا ما يذهب اليه تشومسكي أيضا ، فقد تحدث تشومسكي عن الكيفية التي يعمل بها الاعلام الامريكي في التنظيم الصارم لعقول الجماهير.... وتطرق ديفيد هيوم الى هذه المسائل منذ مائتين وخمسين عاما. وما أثار فضول هيوم هو (السهولة) التي تحكم بها الكثرة من قبل القلة، والخضوع الضمني الذي يسلم به الرجال مصيرهم لحكامهم . وقد وجد هذا مدهشا لان (القوه هي دوما الى جانب المحكومين) واذا أدرك البشر ذلك، فسوف ينتفضون ويطيحون بأسيادهم ، واستنتج أن الحكومة مؤسسة على التحكم بالرأي، وهذ المبدأ يشمل الحكومات الاكثر طغيانا وخضوعا للعسكر، بالإضافة الى الاكثر حرية وشعبية.

قلل (هيوم) من فعالية القوة الوحشية بالتأكيد. والترجمة الاكثر صحة هي أنه كلما كانت الحكومة أكثر (حرية وشعبية) صار من الضروري أكثر الاعتماد على التحكم بالرأي لضمان الخضوع للحكام **(نعوم ، ٢٠٠٧، ص٩-١٠)** . ويحلل (سويم العزي) كيف تتم عملية خلق الرأي السياسي لدى الفرد، أن تغيير رأي الفرد السياسي لا يعني فقط تأثر الفرد بالبيئة المحيطة به و انما يعني أيضا تعطل تأثيرات التنشئة الاولى تحت ضغط البيئة التي فسحت المجال أما الى دعم هذا التغيير أو الوقوف ضده ، ويعني أيضا هذا التغيير في الرأي تغيير في دوافع الفرد الشخصية التي تبحث عن مصادر للتعرف غير تلك التي تم تلقتها خلال كل مراحل تطور شخصيته بسبب عدم قدرة المصادر السابقة على تحقيق اشباع دوافعه المادية والمعنوية **(سويم ، ٢٠١٠ ، ص١٢٣-١٢٨)**.

وقد يسود الاعتقاد أن البحوث قد تساهم في بلورة الحقائق العلمية ولكن الواقع ينبأ أن هناك من يتنازلوا عن مواقعهم الجليلة كباحثين يفترض فيهم الامانة على المباحث والصدق في المقاصد، لا التنازل عن الحقائق الى حدود نكران الذات بنكران الاصالة التي تفترض منهم أن يعطوا لا أن يحذوا حذوا الموجهين المغلوطة التي ترسم منهجيتها على أسس مصلحية تفترض ضرورة اخفاء الحقائق حتى تسهل لهم قيادة من تبعهم من الباحثين من غير الغربيين بما يمكنهم من تعطيل الحقائق لا الغائها، لان هذا غير ممكن أصلا ولاسيما أن الحقائق هي القوانين الطبيعية الموجودة، وليست المصنوعة بأيديهم ، وليست هي في عالم الواقع الذي يتطلب الانطلاق من هذا الواقع والدخول فيه على أساس هذا الفهم . قد يمكن لبعضهم أن يموه الحقيقة ، ولكنه بحال لن يتمكن من الغائها. ومن هنا نفهم أن المساحات الزمنية والمسافات المتباعدة ما بين الحدث الثقافي الحضاري وبين المتعاملين معه، قد تقصر مدى الرؤية لكنها تحدد هذه الرؤية بالنهاية، ومثل صيني يقول* وان تعطلت عقارب الساعة عن الدوران فأنها تشير الى الوقت

الصحيح مرتين على الاقل يوميا* فليس وهم المعرفة هو الذي يحددها معرفة وليست أهواء العارفين هي الموازين التي تؤخذ بها اعتمادا وليس التجهيل سنة تتبع وانما هذه جميعها انعطافات وموانع أنية قد يؤخذ بها بعض الوقت، من قبل بعض الناس ولكن لا يؤخذ بها كل الوقت من كل الناس ، لان المعرفة الثقافية والكونية الحضارية كليهما وجود انساني لا يمكن اسقاطه في معطيات التزوير القافزة فوق الحقائق قصد تجهيلها وتغييبها عن الاذهان بوضعها في اطر الوعي المصلحي الذي يرتئيه هذا المنهج المغلوط كي يصل الى غايته في تغييب متعمد لكل ما يمكن ان يشكل واقعا يسكت تخرصات أصحابه المبنية على السكون دون الحركة وهو ما ليس قائما أبدا، لان وجود السكون يستدعي وجود الحركة ، والعكس صحيح هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فأن تعمية الاشياء في ما ورائيات متوهمة لا ينكر دور العقل في كشفه عن هذه التعمية. ويرى ليوتار في كتابه (ما بعد الحداثة) أن المعرفة بصفتها سلعة معلوماتية لا غنى عنها للقوة الانتاجية، أصبحت وستظل من أهم مجالات التنافس العالمي من أجل احراز القوة ويبدو من غير المستبعد أن تدخل دول العالم في حرب من أجل السيطرة على المعلومات كما حاربت في الماضي من أجل السيطرة على المستعمرات (**حسن ، ٢٠٠٣ ، ص٤٤٧**).

ويرى الفن توفلر في كتابه (أشكال الصراعات المقبلة) أن المعرفة كوسيلة تختلف عن كل الوسائل الاخرى، لا تنضب ويمكن استخدامها من قبل الطرفين وأن جزءا محدودا من المعلومات يمكن أن يعطي أفضلية استراتيجية وتكتيكية هائلة ويمكن أن يؤدي حجزه الى نتائج كارثية. فخطورة المد المعلوماتي الجديد تنبع من قدرته على الاستحواذ على القنوات والادوات التي تصنع ثقافة الفرد وبالتالي تستحوذ على بنيته المعرفية وتتحكم في سلوكه وتوجيهاته وأهدافه وبعبارة موجزة فأنها تسترقه في القطيع الالكتروني الذي يقوده قلة ونخبة تستحوذ على معظم موارد العالم.

أن البحث عن هذه التحولات التقنية المثيرة ليس لأنها أشكال حديثة يستلذ بها البشر وتزداد رفاهيتهم من خلالها ، وانما لما ستفرزه من تحولات نفسية وثقافية واجتماعية وسلوكية على البشر بحيث تنطلق من الاشكال التقنية الجديدة أنماط بشرية في السلوك والفكر والمجتمع . لذلك فأن هذه الافرازات لابد أن تلقي بظلالها على مجتمعاتنا لتفرض ثقافتها وقيمها واخلاقيتها الجديدة علينا وهذا سيشكل لنا تحديا كما هو الان. ومن هنا لابد من دراسة ظاهره المعلوماتية ومعرفة ملامحها وأشكالها وتموجاتها لكي نصل الى تحليل أبعادها واثارها على المستقبل .لم تعد الاسرة ولا المدرسة قادرتين على مواجهة التحدي الذي يتعرضان له والذي يتمثل في حماية الهوية الثقافية من الخطر وصعوبة ضمانهما للأمن الثقافي العربي وعليه ينبغي تهيئة الظروف المؤدية الى زيادة قدرة وامكانية هاتين المؤسستين المهمتين لكي يكون دورهما أكثر تأثيرا وفعالية في الحفاظ على الهوية الثقافية وضمان الامن الثقافي العربي. يرى مفكرون عرب أخرون وربما

الغالبية الساحقة منهم ، أن مواجهة الاختراق الثقافي ينبغي أن تقوم على التجديد أو التحديث من داخل الوطن العربي بتطبيق استراتيجية محددة تشمل الجوانب، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وكمثل على ذلك يرى الجابري ضرورة وجود ديمقراطية حقيقية تتضمن التعبير الحر والمشاركة ويتم فيها تحرير الثقافة من السياسة وكما وردت على لسانه (فالسياسة سلطة والثقافة حرية والسلطة تقتل الحرية تكبلها وتلغيها) وجانب اجتماعي واقتصادي يقوم على تنمية مستقلة ركيزتها الاساسية اعطاء الاولوية لتلبية الحاجات الضرورية للناس وتقليص الفجوة بين الاغنياء والفقراء والمدينة والريف. واخيرا وليس أخرا بعد ثقافي تمتزج فيه الاصالة والمعاصرة والثقافة الجماهيرية والعالمية. ولا ينسى الجابري أن هذه الاستراتيجية ذات الابعاد المتعددة ينبغي أن تتم ضمن العمل العربي المشترك والتنسيق بين جميع اقطار الوطن العربي.

ويتناول بعض الكتاب الرؤيا الامريكية حول الشرق الا وسط والتي تبلورت في وثيقة أمريكية صدرت عن وكالة التنمية الدولية في الثمانيات تحت عنوان (التعاون الاقليمي للشرق الاوسط) وقدمت الى الكونغرس الامريكي ، وتم التأكيد فيها على ضرورة العمل على احلال تعاون اقليمي في الشرق الاوسط، مبنى على أساسين ، هما الاساس الجغرافي والاساس الاقتصادي بدلا من تعاون اقليمي مبني على اساس قومي سياسي والسعي الى الاعتراف العربي بإسرائيل وادخالها في النظام الاقليمي للمنطقة . والخلاصة ان الرؤية الامريكية للشرق الاوسط المتمثلة في (مشروع الشرق أوسطية)، الذي يقوم بالضرورة على استبدال الاساس القومي العربي بالا ساس الاقليمي هو مشروع قديم صهيونيا ، ويرتبط ظهوره عند الولايات المتحدة بفترة الثمانينات ، أي الفترة التي بدأت فيها العولمة المالية تتحول الى الظاهرة الاساسية في النظام الاقتصادي العالمي . واذا كان اطار هذا المشروع ما فوق قومي في الظاهر ، فأن تأثيراته على الارض لا يمكن لها الا أن تكون تفكيكية، ما دون وطنية ، لان استبدال القومي والوطني بالإقليمي يعني دائما اضعاف دور الوطنية في مجالاتها التقليدية (القومية والاجتماعية) مقابل تقوية الدور في مجالات أخرى (المحلية والمعلومة) ، وبالتوازي اضعاف مشروعية الفكر والثقافة ، الذين تقوم عليهما الدولة القومية والوطنية ، اي التراث الحضاري والنزعة الوطنية (**منصور ، ١٩٩٩ ، ص ١٠٣-١٠٧**) .

الخلاصة والاستنتاجات :

١- أن الاسلام بفضل خروجه بالعرب الى عالم ما وراء شبه الجزيرة ،قد نهض بدوره العظيم في دفع عملية التطور الاقتصادي الاجتماعي لمجتمعات اسيوية وافريقية واوربية عدة . هذا على الصعيد التاريخي – العالمي. وعلى مستوى الجزيرة العربية نفسها، موطن الاسلام، ترتبط تقدمية الاسلام وثوريته بأنه أولا، قد أعلن سلوكيا وشرعيا أنه يقف الى جانب الكادحين

والمعدمين ممن يكسبون قوتهم اليومي من الرعي أو الخدمة في القوافل أو التعامل الجزئي مع التجارة بالمفرد. وذلك في مواجهة فريق أولئك التجار الكبار والمرابين وزعماء القبائل المتعاملين مباشرة مع زعامة قريش كما وترتبط ثورية الاسلام ، ثانيا، بأنه سيكون صاحب الفعل الاكبر في دفع حركة التغيير لصالح التقدم ، أي لصالح العملية التاريخية التي كانت تتجه الى نقلة في العلاقات الاجتماعية من شكلها القبلي البدائي الى شكل ما أخر يعلوه في سلم التطور والتقدم. وبالاتفاق مع ذلك الواقع جاءت (المبادئ الاسلامية الاساسية العامة التي تنهض عليها البنية الكلية لفكر الاسلام) والتي اعتمدتها القوى المعارضة للأيديولوجية السلطوية ، سلاحا تقدميا في مواجهتها وهي مبادئ تناهض الاستبداد والظلم الاجتماعي والفردي كليهما، وذات وجهة اجتماعية من حيث الاساس ، بمعنى أنها تضع الاولوية لمصلحة المجتمع ككل وترمي الى توفير القاعدة المادية لسيطرة حكم العدالة الاجتماعية فوق كل سيطرة واقعه او محتملة.

٢- أن مشروع الدولة – الامة الذي وضع بدايتها الاسلام قد تصدعت ، لان هذه الدولة – دولة الامة استبدلت بإمبراطورية، أرادت أن تشتمل على كل الاديان التي كانت قائمة في حينه، اضافة الى البنية العربية ، ولذلك الدولة العربية هذه التي تحدثنا عنها في مرحلة باكرة من الاسلام لم تطل ولم تستطع أن تحقق أركانها الاساسية. لان العامل الاسلامي السياسي كان قد وطن نفسه بوصفه مشروع امبراطورية، وسوف يأتي العباسيون ليحققوا ذلك، ليبعدوا بشكل نهائي ، مفهوم الدولة العربية الذي كان قد تكرس الى حد ما، في اطار الدولة الاموية، لذلك مفهوم الدولة العربية ظل ملتبسا في تلك المراحل التاريخية العربية، ظل ملتبسا ومخترقا وربما ظل غير واضح في أذهان من قاموا على رأس هذه البدايات للدولة العربية. ولايزال العالم العربي يعيش حالة انتقال ، أي أن هناك ضرورة نقل الوضعية العربية الراهنة من مرحلة العالم العربي الى مرحلة الوطن العربي ، وهذا يعني أن النقلة من العالم العربي الى الوطن العربي هي نقلة مرتهنة بتحقق عملية توحيد بين هذه الاقطار، والتوحيد هنا هو توحيد يتم عبر مشروع سياسي ثقافي اقتصادي أي أن الوضعية العربية الراهنة هي فعلا وضعية في مرحلة التشكل ولذلك يلاحظ أن جهود الامبريالية والاستعمار من قبلها ، ثم المشروع الصهيوني تتركز في العمل دون تحقيق هذه النقلة من بنية العالم العربي الى بنية الوطن العربي لان بنية الوطن العربي هو بنية نوعية جديدة تتجاوز العالم العربي أي تتجاوز

التبعثر القطري، الذي هو في الحقيقة ،السمة الاساسية الغالبة في المرحلة العربية الراهنة **(منصور ، ١٩٩٩ ، ص ١٠٣-١٠٧)** .

٣- أن العولمة الامريكية ، تحاول أن تخلف قاعدة للهيمنة الجديدة على البشرية ، بأسم وحدة العالم، التي تتم كميل تاريخي موضوعي ، لكن بقيادة الرأسمال ولمصلحته وفي الاتجاه النقيض لمصالح الاكثرية الساحقة من البشر. ومهمة العرب في هذا الواقع ، هي في ابتداع أفضل الطرق للحفاظ على الهوية العربية. وفي النضال مع سائر شعوب العالم المقهورة والمهمشة لمناهضة هذا النوع من العولمة ولتحقيق وحدة العالم. لكن ما ينبغي التوقف عنده ، أن الهوية العربية لها خصوصيتها ، وخصوصيتها تنبع من خصوصية الواقع العربي المتخلف كما أشرنا أعلاه . ومشكلة التخلف منذ زمن بعيد ، منذ نشوء السيطرة الاجنبية والاستعمارية وأن القابلية للاستعمار لم تتشكل في واشنطن أو موسكو على حد تعبير (تيزيني) ، وانما تشكلت تحت قباب جوامع ومساجد العالم الاسلامي من سمرقند ، وبخاري وبغداد ، دمشق، القيروان ، ويتجسد التخلف العربي في الثقافة الرافضة للديمقراطية. والنتيجة المنطقية لهذا الواقع هو فشل الحياة السياسية بشكل عام والحزبية بشكل خاص وطغيان دور الافراد الزعماء على الساحة السياسية. لذلك يؤكد معظم الباحثين والمهتمين بالشأن العربي ضرورة الافادة من تجارب الماضي ، من الجانب المضيء فيها وهو كبير، سيكون أمرا ضروريا في الحقبة القادمة، قبل أن يقود العجز عن المواجهة الى ما يشبه اليأس من القدرة على تغيير هذا الواقع ، ومن شأن اليأس أن يولد المغامرات من كل الانواع.

قائمة المصادر :

١- ابراهيم ، منصور . افكار لزمن قادم . دمشق دار الشموس للدراسات والنشر،١٩٩٩.

٢ – بركات، حليم . المجتمع العربي المعاصر . ط٦ بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨.

٣ – تيزيني، الطيب . فصول في الفكر السياسي العربي.ط٢، بيروت ، دار الفارابي ، ٢٠٠٤.

٤ – جبر، عبد العظيم حافظ .التحول الديمقراطي في العراق .مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي ، العراق بغداد ، ٢٠٠٩.

٥- الحيدري، ابراهيم . اعادة انتاج الهوية العراقية . مجلة الثقافة الجديدة (العدد ٣١٧) ، ٢٠٠٦.

٦ – حنفي، حسن واخرون . العرب والغرب . عمان ، جامعة فيلاديلفيا ٢٠٠٣

٧- الجاسور ، ناظم عبد الواحد . موسوعة علم السياسة . ط١ عمان دار مجدلاوي للنشر، ٢٠٠٤

_٨- العزي، سويم . علم النفس السياسي .ط١ الاردن ، الثراء للنشر ٢٠١٠

٩ – العيساوي ،شاكر .في تحديث العقل العربي . مجلة الطريق اللبنانية (العدد الاول) ، السنة الستون ٢٠٠٠

١٠ – مروة، كريم . الثقافة العربية .مجلة النهج (العدد ٤٨) ، السنة الثالثة عشر خريف ١٩٩٧

١١- نوري، اسماعيل الربيعي . العرب والاستعمار . ط١ الشارقة دار الثقافة والاعلام ، ٢٠٠٠م.

١٢- تشومسكي ، نعوم . الربح على حساب الشعوب . ترجمة أسامة اسبر ، سورية بدايات ،٢٠٠٧